عتاب العشيرة في القصيدة الجاهليّة

خديجة محمّد أَدِيب أَلِف*

(الإيداع : 18 حزيران 2023، القبول: 12 تموز 2023)

ملخّص البحث

يجتهد البحث في استقراء مضامين قصيدة العتاب الجاهليّة، ويقف في سبيل بلوغ غايته على مفهوم العشيرة ومكانتها من الفرد، ويفصِّل الكلام على العتاب بوصفه مفهوماً وجدانياً وغرضاً شعريّاً، ويثبت معاني عتاب العشيرة في القصيدة الجاهليّة، ويُتبعُ كلّ معنىً بأهمّ السّمات الأسلوبيّة والظواهر الفنّيّة الّتي اشتمل عليها.

وتتأتّى أهمية دَرْسِ عتاب العشيرة في القصيدة الجاهليّة من منزلة العشيرة في نفوس أفرادها في مجتمعٍ قبليٍّ لا تسمح قوانينه بالخروج على العشيرة أو التّخاذلِ عن نجدتها راشدةً كانت أم غييّةً، فضلاً عن أنّها لا تُجيز تقاعُسَ العشيرة عن نصرة أبنائها.

ويتوسّل البحث بالمنهج الوصفيّ التّحليليّ في سبيل بلوغ الغاية الّتي يصبو إليها. ويتوصّل بعد استقراء مضامين العتاب في القصيدة الجاهليّة إلى أنّ العتاب غرضٌ شعريٌّ وموقفٌ وجدانيٌّ، دافعُه الرّئيس الوفاءُ للعشيرة، وقد احترس فيه الشّعراء من معاداة العشيرة وتجنّبوا المعاني الّتي تثير الشّنآن والقلى.

الكلمات المفتاحيّة: عتاب– العشيرة– القصيدة – الجاهليّة– الانتماء

*مدرّس في قسم اللّغة العربية في كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة- جامعة حماة

Admonition of The Clan in The Pre-Islamic Poem

Dr. khadega Mohammed Adeb Alef*

(Received: 18 June 2023, Accepted: 12 July 2023)

The research strives to extrapolate the contents of the pre-Islamic admonition poem. In order to achieve its goal, it relies on the concept of the clan and its status in relation to the individual. It explains of admonition as an emotional concept and a poetic purpose. It proves the meanings of the clan's admonition in the pre-Islamic poem, and relate each meaning with the most important stylistic features and artistic phenomena that it contained.

The importance of studying admonition comes from the status of the individual in the clan and the status of the clan in the hearts of its members in a tribal society whose laws do not allow deviating from the clan or the failure of the clan to support its members, or the failure of individuals to help it, whether it is wise or ignorant. It also does not allow the failure of the clan to support its members.

The research relies on the descriptive analytical approach in order to achieve the goal it aims at. After extrapolating the contents of the Admonition in the pre-Islamic poem, it concluded that the Admonition is a poetic purpose and an emotional position, motivated by loyalty to the clan, in which the poets moved away from opposition to clan and avoided the meanings that arouse hatred and abandonment.

Key words Admonitio- Cla- Poem- Pre-Islamic-Belonging

*Lecturer in the Department of Arabic Language at the Faculty of Arts and Humanities, University of Hama

❖ **مقدّمة:**

العتاب غرضٌ شـعريٌّ وجدانيٌّ، تدلّ ألفاظه ومعانيها على صـلة العتاب بغيره من أغراض الشّـعر مع اختلاف الدّافع؛ فهو يتّصـل بالفخر من جهة إثبات الشّـاعر دالّته على عشـيرته؛ فيُعدّد مناقبه، ويُبرز شـمائله، ويتكلّم على آثار فعاله وصـنائعه في العشيرة. وتظهرُ صلتُه بالوصف؛ فيُفصحُ الشّاعر عن الموجدة الّتي أوجبت نظمَ القصيد، فضلاً عن صلته بالحماسة والهجاء والمدح أحياناً؛ إذ يلجأ الواجدُ إلى مقابلةِ موقف عشيرته الّتي ينتمي إليها ومقارنتِه بموقف عشيرةٍ أخرى أو عصبةٍ غير العصبة الّتي ينتسب إليها. ويظهر أنَّ الدّافع الرّئيس للعتاب وفاءُ الشّاعر لعصبيّته (أهله وعشيرته)، وأجلى ظهورٍ له يَكمن في عدم تَنَصُّـــلِ الشّـــاعر من انتمائه، وإنْ اختلفتِ الآراء ومالتِ الأهواء، ولعلّ ذلك ما يثبت وجدانيّة هذا الغرض الشّـعريّ الّذي لا يقتصـر فيه الوفاءُ على حماية العشيرة من الأخطار الخارجيّة، بل يمتدّ إلى حمايتها من التّصـدع الدّاخليّ الّذي يهدّد كيان العشيرة الوجوديّ والأخلاقيّ.

وتوسّل البحث بالمنهج الوصفيّ التّحليليّ لتبيان معاني قصيدة العتاب الجاهليّة؛ إذ لم يُفرد لها حِصّـة من البحث، فقد دُرس بعضـــها في أثناء الكلام على الهجاء والوعيد والتّهديد[1]، كما توجّهت عناية أغلب الدّارســين إلى الكلام على أهمية العتاب بوصفه غرضاً شعريّاً غير مقترنٍ بعصرٍ أدبيٍّ خاصٍّ، كما تحدّثوا عن أساليبه وطرائقه، وأثبتوا الأمثالَ والحِكَمَ الّتي تحضّ على العتاب أو تُحذّر من مغبّته[2]. وتناولت دراساتٌ حديثةٌ بعض قصائد العتاب الجاهليّة تحت مسمّى الشّكوى عامّة[3]، إلّا أنّ الدّلالة اللّغويّة للجذر (شَـكَوَ) المتمثّلة في الإخبار عن سُـوْءِ الفعل أو التّوجّع ممّا لَحِقَ بالشّـاكي تباينُ مسـعى الشّـاعر الواجد على عشيرته ومقصده من نظم المعتبة، وتتمثّل في الإصلاح بين المتعاتِبَين ورأبِ الصّدع بينهما.

وعلى هذا سـعى البحث إلى إثبات معاني عتاب العشـيرة في القصـيدة الجاهليّة، وهو عتاب تتأتّى أهمية دَرْسِـهِ من منزلة العشـيرة في نفوس أفرادها في مجتمعٍ قبليٍّ لا تسـمح قوانينه بالخروج على العشـيرة أو التّخاذلِ عن نجدتها راشـدةً كانت أم غيّةً، كما أنّها لا تُجيز تقاعسَ العشيرة عن نصرة أبنائها.

❖ **التّمهيد:**

– **مفهوم العشيرة، ومكانتها من الفرد:**

تَواردَ في معاجم اللّغة أنّ المعنى الأصيلَ لمصدر الجذر اللّغويّ (عَشَرَ) هو المخالطةُ وطول المعاملة والدّراية بكلّ أحوال المعاشَر، يقول الخليل بن أحمد الفراهيديّ: "العِشرة: المعاشَرة، يقال: أنت أطولُ به عِشرةً، وأبطنُ به خِبرةً. قال زهير:[الوافر]

لَـعَـمـرُكَ وَالـخُـطـوبُ مُـغَـيِّـراتٌ وَفـي طـولِ الـمُـعـاشَـــرَةِ الـتَـقـالـي

[1] ينظر: العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده، أبو عليّ الحسن بن رشيق القيروانيّ (390– 456هـ)، تح: محمّد محيي الدّين عبد الحميد، ط5، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1401هـ، 1981م ، 2/ 167–168.

[2] ينظر ما جاء في: العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده، 1/ 121 ، 2/ 160. و: البيان والتبيين، الجاحظ (عمرو بن بحر تـ 255 هـ)، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1423 هـ، 2/ 216.

[3] ينظر: الشّكوى في الشّعر الجاهليّ، لارا عدنان ستيتي، إشراف: د. عبد الكريم يعقوب، رسالة ماجستير، جامعة تشرين، 1432هـ، 2012م.

وعشيرُك: الّذي يعاشرك، أمركما واحد"[1]. ويظهر أنّ طولَ معاملة المعاشَر وكثرة مخالطته وحّدتا شأنهما وأجمعتا أمرهما، وهذا ما يجلِّيه قولهم: الزّوجُ عشيرُ المرأة، والمرأةُ عشيرُ الرّجل[2]. فكلٌّ منهما عشيرٌ للآخر؛ وذلك لطول المعاشرة الّتي وحّدت حالهما. ثمّ اتّسعت دلالة الجذر اللّغويّ فأُطلق لفظ العشيرة على كلّ جماعةٍ أمرهُم واحدٌ، فقد جاء عن ابن منظور أنّ "عشيرة الرّجل: بنو أبيه الأَدْنون، وقيل: هُمُ القبيلة....[و] العشيرة: العامّة مثل بني تميم، وبني عمرو بن تميم، والعشيرُ: القبيلة، والعشِيرُ: المعاشَر... ومعْشَر الرّجل: أهله... والمَعْشَرُ: كلّ جماعةٍ أمرُهم واحد"[3]. ومن ذلك رَغِبَ البحث في إثبات كلمة العشيرة لِمَا تحمله من معنىً وجدانيٍّ عميقٍ تتميّز به من كلمة القبيلة.

ويمكن للبحث أن يستزيد لإدراك وحدة الآصرة في العشيرة ممّا تجود به مصنّفات الأمثال وكتب الأدب، فالمتفحِّص في المصنَّفات الّتي جمعت حِكَمَ المعمَّرين الجاهليّين يجدُ قولهم في التّدليل على وجوب اتّحاد العشيرة، واجتماع شأن أبنائها في الدّفاع عنها والذّود عن حماها: "الاستبداد على العشيرة يجرُّ الجريرة"[4]. واعتنى مصنِّفو أمثال العرب بإفراد جانبٍ خاصٍّ من مؤلَّفاتهم يُعنى بما ورد عن حكماء الجاهليّة من حِكَمٍ تُضرب في الدّعوة إلى وحدة العشيرة، منها قولهم: "في الجريرة تشترك العشيرة"[5]. وهذه الأمثال جاءت ممّا رسخ في فِكْرِ الجاهليّين بعد معاينة واقع الحياة الاجتماعيّة من وجوب وحدة أبناء العشيرة واجتماعهم على حالٍ واحدةٍ، وارتباط الجماعة ببعضها أَوْكَدَ ارتباط، فأضحت العشيرة كالرّجل الواحد تُعنى بحال كلّ فردٍ من أفرادها، وغدا الواحد منهم يهمّه ما يهمّ العشيرة كلّها. ويظهر أنّ الدّعوة إلى مطاوعة العشيرة والاهتمام بشأنها استحوذ على فِكْر الحكماء الجاهليّين، فظهرت أصداؤه في وصاياهم كما ظهرت في حِكمهم، فقد أوصى بعضُهم أبناءه بحسن معاملة العشيرة، وفي وصية ذي الإصبع العدوانيّ ولده ما يجلّي هذا الأمر، يقول: "أَلِنْ جانبك لقومك يحبّوك، وتَواضعْ لهم يرفعوك، وابسطْ لهم وجهك يطيعوك، ولا تستأثرْ عليهم بشيءٍ يسوّدوك"[6]. فالسّيادة في العشيرة وعلوّ المنزلة في القوم مرتبطان بلُطْفِ المعاملة وطيبِ المعاشرة وحُسن الاتّباع، والعفوِ عن الزّلات والتّرفع عمّا يورث الحقد، ويتجلّى ذلك أيضاً في وصية الحارث بن الحَكم بَنِيه، يقول: "يا بنيّ... استأنوا العشيرة، ولا تمشوا بينها بالنّميمة، وكُونوا لقومِكم أتباعاً، وإيّاكم والبغي، فإنّه آخر مدّة القوم، وجازوا بالحَسَنة، ولا تكافئوا بالسّيئة، ولا تردّوا الكرامة، ولا تبغوا، غَنِيْتم وبقيتم"[7]. وكلّ هذا يُؤكِدُ أواصر المودّة بين أبناء العشيرة ويوحّد حال أفرادها.

ومن المعلوم أنّ الوصايا معدنُ الحكمة في الحياة الاجتماعيّة ووعاء الخبرة، وما وَرَدَ في حِكم الجاهليّين وجرى مَجرى الأمثال بين النّاس يدلّ على قيمة العشيرة في نفس العربيّ الجاهليّ. فإذا استهدى البحث بالأمثال ونَظَرَ في الحِكم فإنّه واجدٌ في

---

[1] كتاب العين، أبو عبد الرّحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصريّ (تـ 170هـ)، تح: مهدي المخزوميّ وإبراهيم السامرائيّ، مكتبة الهلال، د. ت، مادة (عَشَر). وينظر: لسان العرب، أبو الفضل جمال الدّين بن مكرم (ابن منظور تـ 711 هـ)، ط2، دار صادر، بيروت، لبنان، 1300هـ، مادة (عَشَر).

[2] ينظر: كتاب العين، مادة (عَشَر)، و: لسان العرب، مادة (عَشَر).

[3] لسان العرب، مادة (عَشَرَ).

[4] المعمَّرون والوصايا، أبو حاتم السّجستانيّ (تـ 864هـ)، تح: عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربيّة، مصطفى البابي الحلبيّ، 1961م، ص24.

[5] مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمّد بن إبراهيم (تـ 518هـ)، تح: محمّد محيي الدّين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، د. ت، 2/ 73.

[6] الأغاني، أبو الفرج الأصفهانيّ، تح: أحمد زكي صفوت، دار الكتب المصريّة، القاهرة، نُشرت أجزاؤه (1938– 1958م)، 3/ 100.

[7] المعمَّرون والوصايا، ص 134.

الشّعر ما يدلّ على قيمة العشيرة في نفس الفرد وضرورة اتّباعها وعدم مخالفتها أو الخروج عليها، فالعشيرة مظنّة القوة النّفسيّة والرّوحيّة، يقول عبد الله بن أُبيّ بن سلول[1]: [الطّويل]

متى مـا يكنْ مولاكَ خصـمَـك لا تزلْ تَـذِلُّ ويَـعْـلُـوكَ الّـذيـن تُصَـارِعُ

وهَـلْ يَنْهَضُ البـازِي بـغيرِ جَنـاحِـهِ؟ وإنْ قُـصَّ يـومـاً رِيْشُـهُ فَـهْـوَ وَاقِـعُ

وهذان البيتان _كما وُصِفَا_ "أشردُ مَثَلٍ قيل في العزّ بمُضامة العشيرة والذّل في انحرافها"[2]. واستدلّ ابن رشيق على فضل العشيرة وما توفّره لأبنائها من الحماية والمنعة بما جاء على لسان عليّ بن أبي طالب _كرّم الله وجهه_ من أنّ عشيرة الرّجل خيرٌ من الرّجل للعشيرة، إنْ كفّ عنهم يداً واحدةً كفّوا عنه أيدياً كثيرة[3]. وقد استأنس عليٌّ في قوله هذا بما جاء في الذّكر الحكيم في قوله _تعالى_ فيما حكاه عن لوط: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[هود:80]. فذلك الرّكن هم العشيرة[4]، فالعشيرة لها منزلةٌ عميقةٌ في نفس العربيّ الجاهليّ؛ لأنّ الحياة في العصر الجاهليّ حياةٌ قبليّةٌ، والعصبيّة[5] أساسُ نظامها القبليّ، ويشترط في هذه العصبيّة أنْ ينصرَ الرّجل أهل عصبيّته ظالمين كانوا أم مظلومين؛ إذ إنّ نصرةَ ذوي القربى وحمايتهم من أن ينالهم ضيْمٌ أو تعتريهم سُوءةٌ سنامُ العصبيّة القبليّة. ويجدر بالعربيّ ويَحْسُنُ به أن يكون وفيّاً لأهل عصبيّته وناصراً لهم، وإن اختلفتِ الآراء ومالتِ الأهواء. ويؤيّد ذلك ما جاء في الموروث العربيّ: "الحفائظ تحلل الأحقاد"[6].

دوافع الوفاء للعشيرة:

تتعدد دوافع العربيّ الجاهليّ لعصبيّته (أهله وعشيرته)؛ منها: 1– **الدّافع الوجوديّ** وذلك أنّه فردٌ منتمٍ إلى جماعة، يحيق به ما يحيق بهم، فإن أصابهم ضيمٌ فإنّه واجدٌ لا محالة في نفسه ما يجدون؛ لذا غدا العَطْفُ على ذوي القربى _وإنْ نَبَا الودّ_ واجباً وجوديّاً على كلّ عربيّ جاهليّ، وفي ذلك تقول العرب: "أنفك منك وإن ذنّ، وعيصك منك وإن كان أشبا"[7].

---

[1] الشّعر والشّعراء، أبو محمّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدّينوريّ (ت 276هـ)، تح: أحمد محمّد شاكر، دار الحديث، القاهرة، 1423 هـ، 1/ 87.

[2] حِليَّة المحاضرة في صناعة الشّعر، أبو عليّ محمّد بن الحسن بن المَظفَر الحاتميّ (ت 388هـ)، تح: جعفر الكتاني، دار الرّشيد للنّشر، العراق، 1979م، 297/1.

[3] ينظر: العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسيّ (شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ت 328 هـ)، ط1، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1404 هـ، 2/ 208.

[4] قال أبو عبيدة معمر بن المثنّى: "ومجاز الرّكن ههنا: عشيرة، عزيزة، كثيرة، منيعة". ينظر: مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنّى التّيميّ البصريّ (ت 209هـ)، تح: محمّد فواد سزگين، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1381هـ، ص230.

[5] العصبيّة: هي الرّباط الذي كان يُوثّق الصّلة بين أفراد القبيلة في الجاهليّة، فلم تكن تجمعهم تحت لواء واحد فكرة الأمّة العربيّة أو الجنس العربيّ. وعرّفها ابن خلدون بأنّها "النّعرة على ذوي القربى وأهل الأرحام أنْ ينالهم ضيمٌ أو تصيبهم تَهْلُكة". تاريخ ابن خلدون = كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، عبد الرّحمن بن محمّد بن محمّد (ابن خلدون ت 808 هـ)، تح: خليل شحادة، ط2، دار الفكر، بيروت، 1408 هـ، 1988م، 1/ 160.

[6] جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكريّ الحسن بن عبد الله بن سهل (ت 395هـ)، دار الفكر، بيروت، د. ت، 1/ 349. والمعنى المراد من هذا المثل: إذا كانت بينك وبين ابن عمّك عداوة ثمّ رأيتْه يُظلم حَمِيتَ له ونصرْتَه.

[7] عيون الأخبار، أبو محمّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوريّ (ت 276هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418 هـ، 3/ 101. ذنّ أنفه يذِنّ إذا سَالَ. وعيصك منك وإن كان أشبا: أصلك منك وإنْ كان ذا شوكٍ داخلاً بعضُه في بعض.

والمتتبّع لأشعار الجاهليّين يقرأ فيها دعواتِ الوفاء للعصبيّة، لأنّ الارتباط الوجوديّ للفرد بالعشيرة أوجب ذلك، وفي ذلك يقول عمرو بن قَميئة[1]:[الطّويل]

عَلى أَنَّ قَومي أَسلَموني وَعُرَّتي وَقَومُ الفَتى أَظفارُهُ وَدَعائِمُهُ

لا يُؤثِرُ عمرو بن قَميئة أن يَدَعَ جوار العشيرة على ما كان من نفيها له وإبعاده عنها؛ فقد ظنّ يرى أنّ كيان الفرد لن يكتمل إلّا بأهله وعشيرته. وقد حذّر بعض شعراء الجاهليّة من مغبّة معاداة أهل العصبيّة وإنْ كان له ثأرٌ معهم، فما الثّأر من الأهل إلّا ضلالة الأشرار وهلاك الأخيار، يقول الرّبيع بن ضبع الفزاريّ[2]:[الطّويل]

حَذار حُروب الأَقرَبينَ وَإِنَّهُ لَيَأتي افتِلاتاً وَجهُ كلِّ صَباحِ

أَخاكَ أَخاكَ إِنَّ مَن لا أَخاً لَه كَساعٍ إِلَى الهَيجا بِغَيرِ سِلاحِ

وَإِنَّ ابنَ عَمّ المرءِ فَاعلَم جناحه وَهَل يَنهَض البازي بِغَيرِ جناحِ؟

ويظهر أنّ العربيّ يحافظ على وجوده ويستمدّ قوته النّفسيّة والرّوحية من انتمائه إلى العشيرة؛ لذا غدا اتّباعها ونصرتها ضرورةً ملحّة لاستمرار وجوده وبقائه.

2- **الدّافع الأخلاقيّ**: غذّى الدّافع الأخلاقيّ العصبيّة القبليّة؛ فأَوجَبَ على الجاهليّ الوفاءَ لأهل النّسب وحفظ أعراضهم وصون حقوقهم واستبقاء ودّهم بالحِلم عنهم والعفو عن زلّاتهم، يقول حاتم الطّائي[3]:[الطّويل]

---

[1] ديوان عمرو بن قَميئة، تح: حسن كامل الصّيرفي، معهد المخطوطات العربيّة، 1385 هـ، 1965م، ص 80. العُرّة: الجُرم. ويَنْصَحُ المتلمس رجلاً انتقل عن عشيرته لخلاف وقع بينهما، يقول:[الطّويل]

أَمُنتَقِلاً مِن آلِ بُهثَةَ خِلتَني أَلا إِنَّني مِنهُم وَإِن كُنتُ أَينَما

أَلا إِنَّني مِنهُم وَعِرضِيَ عِرضَهُم كَذي الأَنفِ يَحمي أَنفَهُ أَن يصلما

الأصمعيّات، الأصمعيّ أبو سعيد عبد الملك بن قُريب (ت 216 هـ)، تح: أحمد محمّد شاكر وعبد السّلام هارون، ط3، دار المعارف بمصر، د.ت، ص286.

[2] التيجَان في مُلوك حِمْيَرْ، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميريّ، (ت213هـ)، ط1، تح: مركز الدّراسات والأبحاث اليمنيّة، صنعاء، 1347 هـ، ص 134.

[3] ديوان حاتم الطّائي، شرح أبي صالح يحيى بن مدرك الطّائي، قدّم له: حنّا نصر الحتيّ، ط1، دار الكتاب العربيّ، 1415هـ، 1994م، ص 82. ويقول في موضع آخر:[الطّويل]

أُسَوِّدُ ساداتِ العَشيرَةِ عارِفاً وَمِن دونِ قَومي في الشَدائِدِ مِذوَدا

وَأُلفى لِأَعراضِ العَشيرَةِ حافِظاً وَحَقِّهِمِ حَتّى أَكونَ المُسَوَّدا

نفسه، ص 78- 79.

تَحَمَّل عَنِ الأَدنَينَ وَاِستَبقِ وُدَّهُم وَلَن تَستَطيعَ الحِلمَ حَتّى تَحَلَّما

مَتى تَرقِ أَضغانَ العَشيرَةِ بِالأَنا وَكَفَّ الأَذى يُحسَم لَكَ الداءُ مَحسَما

ولا يُعدّ ترفّع الفرد عن زلّات العشيرة أو تغاضيه عمّا قد تُلحقه به من ظلمٍ أو جَور مِنّة منه أو تفضّلاً عليها، بل إنّ التّحلمَ عن العشيرة حقٌّ من حقوقها كما كانَ السّعي في سبيل تحصيل ودّها واسترضائها وعدم إثارة حفيظتها حقّاً يجب على أبنائها الوفاء به، ويتّضح ذلك في شعر أوس بن حجر، يقول[1]:[الطّويل]

أَلا أَعتِبُ اِبنَ العَمِّ إِن كانَ ظالِماً وَأَغفِرُ عَنهُ الجَهلَ إِن كانَ أَجهَلا

وإِنْ قالَ لي ماذا ترى يستشيرني يجدْني ابنَ عَمٍّ مِخلَطَ الأَمْرِ مِزيَلا

فمِنْ واجب العربيّ الأخلاقي أن يُعتب عشيرته وأهل ودّه كيلا ينبو الودّ ولتنموَ المودّة، لأنّ المودّة أقرب الأنساب، فكيف إنْ كانت في أهل النّسب؟!. وكلّ هذا وذاك اقتضى عُتبى الأهل والعشيرة وأوجَبَ العفو عن زلاتها، وهذا ما دعا إليه مَعُوِّد الحكماء، يقول[2]:[الكامل]

نُعطي العَشيرَةَ حَقَّها وَحَقيقَها فيها وَنَغفِرُ ذَنبَها وَنَسودُ

وَإِذا تُحَمِّلُنا العَشيرَةُ ثِقلَها قَمنا بِهِ وَإِذا تَعودُ نَعودُ

ويبدو أنّ مداراة العشيرة واتّباعها موروثٌ أخلاقيّ، وخلقٌ حميدٌ وَجَبَ أنْ يتحلّى به العربيّ الجاهليّ، وقد أضحى قيمةً أخلاقيّةً يغرسها الآباء في نفوس أبنائهم ويوصون بها ويَدْعون إليها، ويظهر ذلك في وصيّة زهير بن أبي سُلمى ابنه كعباً الّتي لاقت في نفسه قبولاً واستحساناً، وعن ذلك يعبّر كعبٌ بقوله[3]:[الطّويل]

وَبِالعَفوِ وَصّاني أَبي وَعَشيرَتي وَبِالدَّفعِ عَنها في أُمورٍ تُريبُها

وَقَومَكَ فَاِستَبِقِ المَوَدَّةَ فيهِمُ وَنَفسَكَ جَنِّبها الَّذي قَد يَعيبُها

ويظهر من القول الآنف الذّكر أنّ شتمَ العشيرة ومحاولةَ الانتقاص من قدرها من المحارم الّتي يجب التّرفع عنها والتّعفف؛ لذا عاتب بعض الشّعراء أنفسهم على ما بَدَر منهم من ذمّ العشيرة، وندمُوا على ما صَدَر منهم من أقوالٍ لم تصِدقها أفعالهم، يقول كَعب بن جُعَل[4]:[الطّويل]

نَدِمْتُ على شَتمِ العشيرةِ بعدَما مضى واستتبّتْ للرّواةِ مذاهبُه

فأصبحْتُ لا أسْطِيعُ دَفعاً لِمَا مضى كمِا لا يَرُدُّ الدَّرَّ في الضِّرع حالبُه

[1] ديوان أوس بن حجر، تح: محمّد يوسف نجم، ط3، دار صادر، بيروت، 1399 هـ، 1979م، ص 82.

[2] المفضليّات، المفضّل الضّبي، تح: أحمد محمّد شاكر وعبد السّلام هارون، ط6، دار المعارف، د. ت، ص 355.

[3] ديوان كعب بن زهير، صنعة الإمام أبي سعيد الحسن بن الحسين السّكري، قدّم له: حنّا نصر الحتيّ، ط2، دار الكتاب العربيّ، 1996م، ص 209. وتنظر وصيّة ذي الإصبع العدواني في: الأغاني، 3/ 100.

[4] طبقات فحول الشّعراء، محمّد بن سلّام بن عبيد الله الجمحيّ (ت 232هـ)، تح: محمود محمّد شاكر، دار المدنيّ، جدّة، د. ت، 2/ 573.

وأضحى عُتبى أهل النّسب شِيمةً من الشّيم؛ ربّى الآباء عليها أبناءهم، وأوصى بها حكماء الجاهليّة الّذين خبروا الحياة، وأضحوا على درايةٍ بأنّ مداراة العشيرة واجبُ الفرد وحقُّ العشيرة، وتعهّدوا بتَبيان واجب الأبناء اتّجاه عشرائهم. وقد تغنّى بعض الشّعراء بهذه الشّيمة وغدت مثارَ فَخْرٍ بينهم، ومن ذلك فخر حاتم الطّائي، يقول[1]:[الوافر]

وَمـا مِن شـيمَتي شَـتمُ اِبنِ عَمّي وَمـا أَنـا مُـخـلِـفٌ مَـن يَـرتَـجـيـنـي

سَـأَمـنَـحَـهُ عَـلـى الـعِـلّاتِ حَـتّـى أَرى مـاوِيّ أَن لا يَشـتَـكـيـنـي

وأجلى ظهور للوفاء الأخلاقيّ للعصبيّة القبليّة يكمن في الصّفح عن جور العشيرة والتّرفع عن مبادلتها الغيّ بالغيّ والظّلم بالظّلم وإعتابُ ذوي القربى منعاً للقلى والشّنآن واكتظاظ الصّدر بالإحن. ويظهر أنّ مسوّغَ ذلك الارتباطُ الوجوديّ بالعشيرة الّتي تمدُّه بالدّعم النّفسيّ والرّوحيّ، وما تربّى عليه من شِيم وأخلاقٍ تعلي من شأن العشيرة في نفس الفرد الّذي يحرمه الخروجُ عليها من السّؤدد والحماية، كما قد يعرضه للخلع، وفي وصية ذي الإصبع خيرُ دليلٍ على ذلك، يقول: "يا بنيّ... إنّي مُوصيك بما إنْ حفظته بلغتَ في قومك ما بلغتُه، فاحفظ عنّي: أَلِنْ جانبك لقومك يحبّوك، وتواضعْ لهم يرفعوك...، ولا تستأثر عليهم بشيءٍ يسوّدوك"[2].

ولا يعزب عن البال أنّ العصبيّة كما ألزمَت أبناء العشيرة بواجبات؛ منها إجابة الصّارخ وتلبية نداء المستغيث فقد تعيّنَ عليها واجباتٌ وحقوقٌ عليها الوفاء بها لأبنائها؛ منها الأخذ بثأر مَنْ لم يستطع إدراك ثأره أو تسليم الدِية. فالعشيرة وفق قانون العصبيّة القبليّة تفرضُ على أبنائها مؤازرتَها ونصرتَها ظالمةً كانت أم مظلومةً، ويلزمها هذا القانون بنَجْدَةِ أبنائها –عمادها وعضدها– إنْ لَحِقَ بهم جَورٌ أو نَزَلَ بهم ظُلم. وهذا يقتضي أن يكون أفرادُ العشيرة متضامنين متعاضدين يَعصمون عشيرتهم من ملمّات الحوادث فترفدهم بالنّصرة وتؤمّن لهم الحماية. وهذا التّضامن قد أوثق عُراه وأحكمها ما تمتّع به العربيّ الجاهليّ من خِلال وشِيم، برز منها الوفاءُ لأهل عشيرته والصّفحُ عمّن تربطهم به رابطة النّسب.

- **العتاب مفهوماً وجدانيّاً وغرضاً شعريّاً:**

أثبتتْ معاجمُ اللّغة المعنى الأصيل (الوَجْد) للأصل الصحيح (عَ تَ بَ) الّذي اُشتقّ منه المصدر (العِتاب والمَعْتَبة والعَتْب والمَعْتِبَة)، وبيّنتْ في أثناء التّعريف بالجذر اللّغويّ وَجْدَ العاتِبِ لدخول أمرٍ أفسد الحال وغيّرها. فضلاً عمّا اقتضته زيادة المبنى من زيادة المعنى، فالتّعاتب تواصفُ المتعاتبين للموجدة، والمعاتبة استزادٌ في اللّوم، في حين أنّ العُتبى إرضاءُ العاتب بتركِ ما وَجَده عليه والرّجوع إلى مسرّته ومرضاته[3].

ويبدو أنّ ما استوجب الوَجْدَ فسادُ ذات البَيْن واغبرارُ الجوّ ممّا أقضّ مضجع العاتِب، وبثّ في قلبه حزازاتٍ من الهمّ والغمّ، إلّا أنّه لم يُطرق على المضض ويُغمض على الظّلم، ولم يَجِم على الحزن، بل بثّ موجدته مُستَبقِياً الودّ.

وقد أشارت بعض معاجم المعاني _في أثناء ترتيبها درجات الموجدة النّفسيّة حسْب وقوعها من نفس المعاتَب_ إلى أنّ العتاب أولى درجات الموجدة النّفسيّة ثمّ اللّوم ثمّ التّقريع ثمّ التّوبيخ ثمّ التّأنيب[4]. وقد فصّلت هذه المعاجم القولَ في الفروق بين درجات الموجدة النّفسيّة (اللّوم والعتاب)، يقول العسكريّ: "العتاب: هو الخطاب على تضييع حقوق المودّة والصّداقة في

---

[1] ديوان حاتم الطائيّ، ص 28.

[2] الأغاني، 3/ 100.

[3] ينظر: كتاب العين، مادة (عَتَبَ). و: لسان العرب، مادة (عَتَبَ).

[4] ينظر: الألفاظ الكتابيّة في علم العربيّة، عبد الرّحمن بن عيسى بن حمّاد الهمذانيّ (ت 320هـ)، تح: موفق صالح الشّيخ، ط1، مركز الرّسالة للدّراسات وتحقيق التّراث، 1432هـ، 2011م، ص 19.

الإخلال بالزّيارة وترك المعونة وما يشاكل ذلك، ولا يكون العتاب إلّا ممّن له مواتّ يمتّ بها، فهو مفارقٌ للّوم مفارقة بيّنة"[1]. فلن يكون العتاب إذن إلّا في ذوي القربى لِمَا أورثته أفعالهم من نُبْوِ الودّ ونَبْذِ المودّة وتغيّر الحال، في حين أنّ في اللّوم تنبيهاً للفاعل على موقع الضّرر في فعله سواءٌ أكان فعله حسناً أم كان قبيحاً[2].

وألمحتْ بعض كتب الأدب في أثناء تعريفها العتاب إلى بعض ضمنيّاته؛ ومنها أن يذكر العاتِب دالّته على المعاتَب، فضلاً عن مبتغى العاتِب وهو تبيان الموجدة صوناً للمودّة، يقول ابن الأثير الحلبيّ: "العتاب: مخاطبة الإدلال ومذاكرة الوَجْد على العاتب، والمحافظة على المودّة"[3].

وتناولَ بعض نقّاد الأدب ودارسوه العتابَ في أثناء كلامهم على موضوعات الشّعر ومعانيه، فخصّه ابن رشيق ببابٍ مستقلٍّ منفردٍ عن موضوعات الشّعر الأخرى كالهجاء والمدح، إذ إنّ العتاب حالٌ بين حالين فهو طرفٌ لكلّ واحد منهما[4]. وفصّلَ القولَ في أهمية العتاب، ودعا إلى التّوسّط فيه لتتحقّق الغاية المرجوّة منه، يقول: "وإنْ كان [العتاب] حياة المودّة وشاهد الوفاء فإنّه بابٌ من أبواب الخديعة يُسرع إلى الهجاء، وسببٌ وَكِيْد من أسباب القطيعة والجفاء، فإذا قلّ كَلَّ داعية الألفة وقَيْدُ الصّحبة، وإذا كثُرَ خَشُنَ جانبه وثَقُلَ صاحبه"[5]. وكان ابن رشيق مسبوقاً إلى هذا الأمر فقد تحدّث الجاحظ عن أهميّة التّوسّط في العتاب وبيّن المواضعَ الّتي تُوجب العتاب والمواضعَ الّتي تُلزم اطِّراحه، يقول: "واعلم أنّ كثرة العتاب سببٌ للقطيعة، واطّراحه كلّه دليلٌ على قِلّة الاكتراث لأمر الصّديق، فكُنْ فيه بين أمرين: عاتبْه فيما تشتركان في نفعه وضرّه وذلك في الهينات، وتجافَ عن بعض غفلاته تسلمْ لك ناحيته"[6]. ويُضمر كلام الجاحظ وابن رشيق تحذيراً من مغبّة كثرة العتاب الّتي تُورث البغضاء ويَنْبُو معها الودّ، ودعوةً إلى التّوسّط فيه لاستبقاء المودّة. وفي سبيل بلوغ الغاية المرجوّة من العتاب بيّن ابن رشيق أساليبَه وتفاوتَ النّاس في طرائقِه، منها الاستعطاف والاستئلاف، والاحتجاج والانتصاف، والمنّ والإجحاف، والاعتذار والاعتراف[7]. وهذا كلّه إنّما يستبقي الودّ ويديم المودّة ويصلح شأن المتعاتِبين من دون أن ينحى العاتِب على المعاتَب باللّائمة أو يحيل عليه بالتّعنيف، وفي هذا الشّأن يقول حازم القرطاجنّي: "فملاك الأمر فيها [ويقصد طرائق المعاتبات والاستعطافات] التّلطف والإثلاج إلى كلّ معتذر إليه أو معاتب"[8].

والنّاظر في دراسات دارسي الأدب ونقّاده يجد أنّ منهم مَنْ رأى في العتاب خيراً فتكلّم على أهميته؛ إذ إنّه يستبقي الودّ، ويستلّ سخيمة الصّدر وما انطوى عليه من إحن وضغائن، ويمحو الشّر من صفحات الأقوال والأفعال. فظاهر العتاب خيرٌ، ويظهر ذلك في رسالة الحارث بن كلدة إلى بني عمّه، يقول[9]: [الوافر]

---

[1] الفروق في اللّغة، أبو هلال العسكريّ، تح: لجنة إحياء التّراث العربيّ، ط4، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1400 هـ، 1980م، ص53.

[2] ينظر: نفسه، ص 52.

[3] جوهر الكنز تلخيص كنز البراعة في أدوات ذوي اليراعة، نجم الدّين أحمد بن إسماعيل بن الأثير الحلبيّ (ت 737 هـ)، تح: محمّد زغلول سلام، منشأة معارف الإسكندرية، د. ت، ص 587.

[4] ينظر: العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده، 1/ 121.

[5] نفسه، 2/ 160.

[6] الرّسائل السّياسيّة، الجاحظ عمرو بن بحر (ت 255 هـ)، دار الهلال، د. ت، ص 86– 87.

[7] ينظر: العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده، 2/ 160.

[8] منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجنّي (ت 684هـ)، تح: محمّد الحبيب خوجة، دار الكتب الشّرقية، د.ت، ص 352.

[9] مصادر الشّعر الجاهليّ، ناصر الدّين الأسد، ط 7، دار المعارف، مصر، 1988م، ص 132. ووردت الأبيات منسوبةً لأعرابيّ في: الأمالي، أبو عليّ القاليّ إسماعيل بن القاسم (ت 356هـ)، عُني بوضعها وترتيبها: محمّد عبد الجواد الأصمعيّ، ط 2، دار الكتب المصريةّ، 1344 هـ، 1926م، 2/ 119.

ألا أبـلـغْ مُـعـاتـبَـتِـي وقـولِـي بَـنـي عـمِّـي فـقـد حَسُـنَ الـعِـتـابُ

وسَـلْ هلْ كانَ لي ذنبٌ إليـهمْ هُـمُ مِـنْـهُ؟ فـأُعْـتِـبُـهُـمْ غِضـاب

كـتـبْـتُ إلـيـهـمُ كُـتـبـاً مِـراراً فـلـم يَـرجِـع إِلَـيّ لـهـمْ جَـواب

فـلا أدري أغـيّـرهـمْ تَـنـائـي وطـولُ الـعـهـدِ أم مـالٌ أصَـابُـوا

فَـمَـنْ يَـكُ لا يـدومُ لـه وَفَـاءٌ وفـيـه حـيـن يَـغْـتَـرِبُ انـقـلابُ

فـعـهـدي دائـمٌ لـهـم وودّي عَـلَـى حـال إذا شَـهِـدُوا وغَـابُـوا

ومنهم من حذّر من مغبّة العتاب، إذ إنّه يجمِش الودّ و"يبعث على التّجني، والتّجنّي أخو المحاجّة، والمحاجّة أخت العداوة، والعداوة أمّ القطيعة... [وهو] رسول الفرقَة وداعي القِلى وسبب السّلوان وباعث الهجران"[1].

ومنهم من بيّن عدم جدوى معاتبة مَن خانَ الودّ وآثر الهجْرَ على الوصل[2]، ويُقرأ في بعض أشعار العرب وأمثالهم ما يمكن أن يكون الفَصْلَ في هذا الشّأن، فقد أُثر عن العرب قولهم: "إنّما يُعاتب الأديم ذو البشرة"[3]. فاشترطوا ألّا يحمل العتابُ المعاتَب على اللّجاج فيما كُره منه وعُتب من أجله.

وقد وضع البحث يده على قصائدَ جاهليّةٍ؛ عاتب فيها الشّاعر الجاهليّ عشيرته الّتي نَبَا ودّها فلم تجب نداءَ من استغاث بها من أبنائها، فراح يشكو ما أحسّ به من ظُلم وجَور، واجْتَهَدَ البحثُ في استنباطِ أهم المعاني الّتي انطوت عليها هذه القصائد ليبيّن مبتغى الشّاعر من المعاني الّتي أتى على ذكرها في ذلك الموقف الوجدانيّ (عتاب العشيرة)، وأَتْبَعَ كلّ معنىً بأهمّ ظاهرة فنّيّة اشتمل عليها وبرزَتْ فيه، فكَشَفَتْ عن حال الواجد، وأبانَتْ غايةَ الشّاعر من بثّ الموجدة، وساعدتْ في إقناع المتلقيّ بمراد الشّاعر، وأسهمت في تأدية العاتِب مهمته بإخبارٍ أدبيٍّ صار شعراً، وذلك بعد أن عرّج على الدّلالة اللّغويّة لمصطلح العتاب والمعنى الاصطلاحيّ له، وما أتى على ذكرِهِ دارسو الأدب ومصنّفو موضوعاته.

❖ **مضامين عتاب العشيرة في القصيدة الجاهليّة:**

1- <u>خطاب الإدلال</u>:

يتصدّر مطلع قصيدة العتاب، إنّه ردّة الفعل الطّبيعيّة للعاتِب على الموجدة الّتي ألمّت به، يبثّ فيه دالّته على العشيرة الّتي ينتمي إليها، ويقارن فيه بين صنيع الفرد الّذي يحرص على صون رباط العصبيّة للعشيرة وصنيع العشيرة الّتي خبطت في عشوائها وفَالَ رأيها في أبنائها. ويُلحظ ذلك في معتبة أفنون التّغلبيّ، يقول[4]:[البسيط]

أبَـلـغ حُـبَـيـبـاً وَخَـلّـل فـي سَـراتِـهِـمِ أنَّ الـفُـؤادَ اِنـطَـوى مِـنـهُـم عَـلـى حَـزَنِ

[1] جمهرة الأمثال، 1/ 70- 71. يجمِش: يَحْلِق.

[2] ينظر: عيون الأخبار، 3/ 125.

[3] جمهرة الأمثال، 1/ 70.

[4] المفضّليّات، ص 262.

قَـد كُنـتُ أَســبِقُ مَن جـارَوا عَلى مَهـلِ مِن وُلـدِ آدَمَ مـا لَم يَخلَعوا رَسَـــني
فـالـوا عَـلَـيَّ وَلَـم أَمـلِـك فَـيـالَـيـتَـهُـم حَتّى اِنتَحَيـتُ عَلى الأَرســـاغِ وَالثُنَنِ

أثبت أفنون دالّته على عشيرته الّتي أسلمته من دون عُرّة جرّها إليها في بلاغ شعريّ جرى فيها جري الرّياح وتغلغلَ إلى مسامعها، واحترس في أثناء إثبات دالّته على عشيرته من أنْ ينحى عليها باللّائمة أو يحيل عليها بالتّعنيف، ولجأ إلى المقابلة والموازنة بين المواقف فأتبعَ الكلامَ على الدّالة الّتي جلّت حسن صنيعه في عشيرته (قد كنت أسبق من جاروا على مهل من ولد آدم) بالحديث عن قبيح فعلهم (يخلعوا رسني– فالوا عليّ) وسفاهة رأيهم، ثمّ أثبت مآلات صنيعها فيه (انتحيتُ على الأرساغ والثّنن).

ويُثبت مُحْرِز بن المُكَعْبِر الضّبيّ دالّته على عشيرته، ويعرض منّته عليها وتقصيرها في حقّه، يقول[1]:[الطّويل]

أبلِغ عَـديّـاً حيـثُ صـــــار بهـا النـوَى ولـيـسَ لـدهـرِ الـطـالِـبـيـنَ فَـنَـاءُ
كُسَـــــالـى إذا لاقـيـتـهُـم غـيـرَ مـنـطـقٍ يُـلـهَّـى بـه الـمـتـبـولُ وهـو عَـنـاءُ
أُخـبِّـرُ مـن لاقـيـتُ أَن قـد وفـيـتُـمُ ولو شِـــئـتُ قـالَ المنبِئونَ أســـاؤوا

قابلَ مُحْرِز بن المُكَعْبِر في رسالته الشّعرية سوْءَ صنيع عشيرته وإجحافها في حقّه من تركِ المعونة والإخلال بحقوق أبنائها (كسالى إذا لاقيتهم) بحسن صنيعه (أُخبِّرُ من لاقيتُ أَن قد وفيتُمْ). ويظهر أنّه لم يكافئ السّيئة بالسّيئة كما أنّه لم يُطرق على المضض أو يغمض عن ظلم عشيرته (لو شِئتُ قالَ المنبِئونَ أساؤوا)؛ أي: إنّه تجنّبَ معاداة عشيرته كما أَنِفَ من مداهنتها ومحابتها، وسعى إلى التّحذير من مغبّة سوء صنيعها خشيةَ أن تقرصها ألسنةُ الملامة وتعضّها نواجذ اللّوم.

ويتّضح من إثبات العاتِب دالّته على عشيرته وعرضِ منّته عليها أنّ فعل العشيرة لم يوغر صدره، بل إنّ خطاب الإدلال في قصيدة العتاب الجاهليّة قد رسّخ وفاء العربيّ لأهل عصبيته والتزامه بما أوجبه عليه رباط العصبيّة للعشيرة فلم يبادلها الغيّ بالغيّ والجور بالجور مع المقدرة على ذلك، ونبّه على زلات العشيرة وعفو العاتب عن هفواتها لرأْبِ ما انفرط من عقد الصّلة وتقوية ما وَهَن من حبال الودّ. ولعلّ ذلك أحفظ لوجودهما (وجود الفرد المتحقّق بوجود العشيرة ووجود العشيرة الّذي تكتسبه من أفرادها) وأحقن للدّماء؛ إذ إنّ معاداة أهل العصبيّة ضلالة الأشرار وهلاك الأخيار. ولا يخفى ما في خطاب الإدلال من الرّغبة في التّعويض النّفسيّ عن النّقص الّذي أصاب العاتِب على العشيرة من دون أنْ يعرّض بها أو يحطّ من شأنها؛ أي إنّه يُعْتِبُ نفسه بإثبات شيمه ومناقبه.

وبدا أنّ **أسلوب الإبلاغ الشعريّ** من أبرز السّمات الفنّيّة في خطاب الإدلال، وقد برز هذا الأسلوب في مقطّعات القصيدة الجاهليّة كما ظهر في قصائدها الطّوال، وظهر في موضوعات عدّة، منها شعر الحرب وما يقتضيه من طلب النّجدة والفكّ من الأسر أو الافتخار بالنّصر وهجاء الأعداء، فضلاً عن نصح العشيرة وتحذيرها من غزوٍ منتظر. ولا يعزب عن البال اعتذاريّات النّابغة الذّبيانيّ وغير ذلك من موضوعات الشّعر الجاهليّ. وقد أكّدت بعض الصّيغ اللفظيّة الّتي افتتح بها الشّعراء رسائلهم الشّعريّة على أنّها نظمٌ شفويّ، منها (يا راكباً إمّا عرضت فبلّغن، ألا أبلغ، من مبلغ عنيّ، أبلغ...). وينمّ هذا الأسلوب على يقين المرسِل من تلقّي المرسَل إليه بلاغَه الشّعريّ، ووعيه بأهمية الشّعر وأثره في تحقيق المبتغى في العصر الجاهليّ. وبرز هذا الأسلوب في قصائد العتاب الجاهليّة الّتي يفتتح فيها العاتب معتبته افتتاح الرّسالة من حيث الصيغة اللّفظيّة (أبلغ)، ويظهر ذلك في رسالة أفنون التغلبيّ الشّعريّة ومُحْرِز بن المُكَعْبِر الضّبيّ، فقد حدّدا في بلاغهما الشّعريّ المرسَل إليه

[1] شرح ديوان الحماسة، الخطيب التّبريزيّ (ت 502 هـ)، كتب حواشيه: غريد الشّيخ، وضع فهارسه: أحمد شمس الدّين، ط1، منشورات محمّد عليّ بيضون، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، 1421هـ، 2000م، 2/ 1017.

(عشيرتهما: حُبيب، عَدِيّ)، وقابلا فيها بين حدثين متضادين: جميل صنيعهما في العشيرة مقابلَ سفاهة رأيها فيهما والإساءة إليهما. ويظهر أنّ في تحديد المرسَل إليه ما يثبت القطيعة بين الطّرفين: الشّاعر وعشيرته واقتصار التّواصل بينهما على الرّسائل الشّعريّة الّتي تحفظ ويتناقلها النّاس[1]، كما يجدر بالذّكر أنّ الشّاعرين لم يجازيا الإساءة بالسّوءى، فقد صرّح أفنون بالأثر النّفسيّ والرّوحيّ اتجاه الحدث الّذي لم يباشر بذكره بعد (الفؤاد انطوى منهم على حزن). ويظهر أنّ العناية بالغاية الإصلاحيّة للمعتَبة المتجلّية في رأب ما انصدع سوّغت إثبات الشّاعرين دالّتهما على عشيرتهما في مطلع قصيدة العتاب قبل التّصريح بصنيع العشيرة علّها تؤوب إلى رشدها ويعود خيط الودّ بينهما. ولاءمت بعض الأساليب الشّعريّة مقام العتاب وما تضمّنه من معانٍ مثبتة في بلاغ شعريّ يثبت فيه الواجد دالّته على العشيرة، منها **الأسلوب الخبريّ المتضمَّن في صيغ الإنشاء**: (**الأمر**: أبلغ حُبيباً وخلل في سراتهم: الفؤاد انطوى على حزن_ كُنتُ أَسبِقُ مَن جارَوا عَلى مَهلٍ، أبلغ عديّاً: كُسَالى إذا لاقيتهُم). ويبدو أنّ صيغَ الأمر (أبلغْ_ خلّل) قد خرجت عن غرضها الرّئيس (وجوب الفعل) إلى غرضٍ آخر (النّصح والإرشاد)؛ أوضحته الجملة الخبريّة الّتي أثبتت أثر الموجدة في نفس العاتب وجميل صنيعه في عشيرته، وأزالت اللّبس الّذي يمكن أنْ يعلق بالأمر من معانٍ قد يوحي بها المقام الذي نُظم فيه هذا المقال من مثل الوعيد والتّهديد إلّا أنّ الواجد لا يبتغيها؛ ذلك أنّ الخبر المثبت في سياق الأسلوب الإنشائي الطّلبيّ لا يحتمل إلّا إقرار المتلقيّ بأثر الموجدة وفضل العاتب في عشيرته. ويظهر أنّ البلاغ العتابيّ الشعريّ بوساطة أساليبه الإبلاغيّة نحا منحىً إصلاحيّاً، ذكّر فيه الشّاعر بدالّته على عشيرته، واحترس فيه من معاداة العشيرة ليحافظ على مكمن قوتها وسنام وجودها المتمثّل في تمسّك أبنائها بعصبيتهم القبليّة؛ لذا رَكّزَ على معاني العتاب الوديّة الّتي تشي بأهمية توطيد الآصرة القبليّة مستبعِداً المعاني الّتي تثير الشّنآن والقِلى فضلاً عن المعاني الّتي تحذّر من مغبّة سوء طَويّة أبناء العشيرة إنْ أساءتْ معاملتهم، وترفّع فيه عن التّزلف والاستعطاف قدْر تجنّبه التّعالي والاستكبار، وأكّد التزامه بقوانين النّظام القبليّ إذ إنّ النّصرة لم تعد في ساحات المعارك فحسب بل إنّ في ردّ العشيرة عن غيّها نصرةً أيضاً.

2- مذاكرة الوجد:

احتلّت مذاكرة الوجد مكاناً مهمّاً في قصيدة العتاب الجاهليّة، فلا تكاد تخلو معتبةٌ شعريّةٌ منها؛ يبيّن فيها الشّاعر ما أقضّ مضجعه، وبثّ في قلبه حزازاتٍ من الهمّ والغمّ، فيباشر بذكر موجدته، ويبثّ حجّته للمتلقيّ الّتي أوجبت الوَجْدَ على عشيرته. وبرز ذلك في معتبة أفنون التّغلبيّ، يقول[2]:[البسيط]

فـالـوا عَـلَـيَّ وَلَـم أَمـلِـك فَـيـالَـيـتَـهُـم حَتّى إنتَحَيـتُ عَلى الأَرســـاغِ وَالثُنَنِ
سَـــأَلـتُ قَومي وَقَـد سَـــدَّت أَبـاعِرُهُم مـا بَينَ رَحبَـةَ ذاتِ الـعيصِ فَـالـعَـدَنِ
إذ قَـرَّبـوا لِإبـنِ سَـــوارٍ أَبـاعِـرَهُـم لِلّهِ دَرُّ عَـطـاءٍ كـانَ ذا غَـبَـنِ
أَنّـى جَـزَوا عـامِـراً سُـــوءى بِـفِـعـلِـهِـم أَم كَيفَ يَجزونَني السُـــوءى مِنَ الحَسَـــنِ

يُثبت أفنون الواجدُ على عشيرته في معتبته تداعياتِ الوجد، فقد ضنّت عليه بأباعرها مع السّعة والقدرة على البذل والعطاء خذلاناً له ونصرةً لمن سواه (ابن سَوار). ويفصح في أثناء مذاكرة الوجد عن ضلالة رأيها وتداعيات ذلك وأثره فيه؛ فقد أسلمه النّأي عنها إلى أراذل النّاس (إنتَحَيتُ عَلى الأَرساغِ وَالثُنَنِ). ويظهر أنّ مذاكرة الوجد لم تغمر صدر الواجد بالحماطة أو

[1] الرّسائل الشّعريّة في العصر الجاهليّ "قراءة في بدايات النّوع الأدبيّ"، مهى عبد القادر مبيضين و جمال محمّد مقابلة، مجلّة العلوم الإنسانيّة، ع 26، 2015م، ص 354- 355.

[2] المفضّليّات، ص 262- 263. الأرساغ والثّنن: يريد بهما الكناية عن أراذل النّاس وأسافلهم.

تُنقص من شأن العشيرة في نفسه بقدر ما أثارتْ استغراب الشّاعر من حال العشيرة حين استعطاها، وتعجبّه من سوء تصرّفها (لِلَهِ دَرُّ عَطاءٍ كانَ ذا غَبَنِ).

وأفاد عمرو بن قَميئة في مذاكرة الوجد من فاعليّة الشّعر في الإبلاغ المباشر عن مآلات ضعف التّرابط وتداعيات انفصام عُرى العصبيّة القبليّة، يقول[1]:[الطّويل]

أُقــارِضُ أَقــوامــاً فَــأوفــي قُــروضَـــــهُــم وَعَفٌّ إِذا أَردى النُفوسَ شَـــحيحُـهـا

عَلى أَنَّ قَومي أَشَـــقَــذوني فَــأَصـــبَحَـت دِيــاري بِــأَرضٍ غَــيــرِ دانٍ نُــبــوحُــهــا

تَــنَــفَّــذَ مِــنــهُــم نــافِــذاتٌ فَسُـــــؤنَــنــي وَأَضـــمَرَ أَضـــغــانــاً عَلَيَّ كُشـــوحُهـا

ولا يخفى ما في التّصريح بصنيع العشيرة (قومي أشقذوني_ تَنَفَّذَ مِنهُم نافِذاتٌ فَسُؤنَني_ أضمر أضغاناً) من إدراك الشّاعر لأهمية الشّعر في إبلاغ خبر الموجدة وانتشاره بين أبناء العشيرة وبين العشائر الأخرى، فتغدو هذه المذاكرة وثيقةً يسجّلها الشّاعر الواجد على عشيرته، فيذيع خبرها بين أبناء العشيرة وغيرها من العشائر. ولم يكن الشّاعر في ذلك يُعرّض بعشيرته أو يُنقِصُ من شأنها بقدر ما بيّنَ نظمُهُ مواضعَ الضّعف في الرّابط الّذي يربط الفرد بعشيرته؛ علّ العشيرة تؤوبُ إلى رشدها، وتُدرِك تداعيات ضعف رباط العصبيّة الّذي يهدّد كيانها الوجوديّ فضلاً عن تهديد كيانها الأخلاقيّ بتقريع الهاجين لها وفخرهِم عليها.

ويظهر أنّ **الأسلوب الإخباريّ** في مذاكرة الوجد ينسجم مع البلاغ الشّعريّ، ويتوافق مع طبيعة الحدث الّذي يُخبر عنه الشّاعر (مذاكرة الوجد) وما يقتضيه من أسلوبٍ خبريّ يقرّ فيه العاتب بتحقّق الموجدة ووقوعِها (سفاهة رأي العشيرة في موجدة أفنون: فالوا عليّ_ قَرَّبوا لِابنِ سَوارٍ أَباعِرَهُم، والإبعاد والإقصاء عن العشيرة في موجدة عمرو بن قَميئة: قَومي أَشَقَذوني_ أكنّوا خطوباً_تَنَفَّذَ مِنهُم نافِذاتٌ فَسُؤنَني_ أَضمَرَ أَضغاناً عَلَيَّ كُشوحُها...). وتعاضد دلالةُ الأفعال الماضية وتوازرُ دلالةَ الأسلوب الخبريّ من الإقرار بتحقّق الموجدة ووقوعها الّذي لا يتردّد في قبوله متلقٍّ، ولا ينكره عليه منكرٌ. ولا تقتصر غاية العاتب في مذاكرة الوجد على الإخبار والإبلاغ بقدْر ما ابتغى منها وسعى من خلال إثباتها إلى استنكار صنيع العشيرة واستغرابه من سفاهة رأيها. وتوّضح بعض الأساليب تلك الغاية الاستنكاريّة المتضمَّنة في مذاكرة الوجد؛ منها **أسلوب الاستفهام** (أنّى جزوا عامراً سُوءى بفعلهم_ كيف يجزونني السُّوءى من الحسن) الّذي استثار المخاطب في الإجابة ومشاركة العاتب في مذاكرتِه الوجدَ، فقد فارق دلالته الرّئيسة (طلب العلم بشيءٍ لم يكن معلوماً من قبل) إلى التّعجب. ويظهر أنّ "مبعث التّعجب في الاستفهام أنّه سؤالٌ عن أمرٍ مُستغَربٍ لإثارة الانتباه له وتوجيه النّظر إليه. ويشير التّعبير عن التّعجب بالاستفهام إلى أنّ ذلك الأمرَ العجيبَ جديرٌ بالتّأمل والنّظر"[2].

ويبدو أنّ التّعجب الّذي خرج إليه أسلوب الاستفهام في مذاكرة الوجد في معتبة أفنون لم يقتصر على التّعجب من حال العشيرة الّتي ضيّعت حقّه وجازَتِ الحسن بالقبيح من الفعل فحسب بقدرِ ما استرعى الانتباه ووجّه الأنظار إلى ما ينبغي أن تكون عليه علاقة العشيرة بالفرد وماهيّة ارتباطهما. ويتّضح أنّ مذاكرةَ الوجد في قصيدة العتاب أبانت مواطن الهوّة ومواضع الضّعف في الرّابط الّذي يربط الفرد بعشيرته، إلّا أنّ أسلوب الاستفهام فيها أجلى المنحى الإصلاحيّ فأبانَ ما ينبغي أن تكون عليه علاقة العشيرة بأفرادها.

[1] ديوان عمرو بن قَميئة، ص 19 وما بعدها. وينظر: نفسه، ص 6، ص 77.

[2] مباحث في علم المعاني، محمد طاهر الحمصيّ، ط2، مديريّة الكتب والمطبوعات الجامعيّة، جامعة البعث، 1995م، 1996م، ص 183.

3- إثارة حميّة العشيرة:

احتلّ هذا المَعلم مكاناً بارزاً في قصيدة العتاب في العصر الجاهليّ، وانصبّت فاعليّته في تنبيه العشيرة على مواضع الخلل في علاقتها بأبنائها، إذ إنّ ذلك الخلل لن يُورث الوَجْدَ فحسب، وإنّما قد يحلّ وثاقَ العصبيّة القبليّة ورباطها. وتجلّى هذا الأمر في معتبة أفنون التّغلبيّ الّذي ضنّت عليه عشيرته بأباعرها، فتمنّى لو كان من أقوامٍ اتّصفوا بالقوّة وعِظمِ الأبدان (عاد، إرم، لقمان) ورفعةِ الأنساب (جَدن)، يقول[1]:[البسيط]

لَـو أَنَّـنـي كُـنـتُ مِـن عـادٍ وَمِـن إِرَمٍ رَبـيـتُ فـيـهِـم وَمِـن لُـقـمـانَ أَو جَـدَنِ

لَـمّـا فَـدوا بِـأَخـيـهِـم مِـن مُـهَـوَّلَـةٍ أخـا السَّـكونِ وَلا جـاروا عَنِ السُّـنَنِ

لم يَصْرِم أفنون عشيرته أو يهجوها على الرّغم من سوء صنيعها، بل أثار حفيظتها بعد أنْ أخلّت بميثاقها وتوانتْ عن نصرة أبنائها، واكتفى بالتّمني غير المحقّق إلّا أنّه قد أنبأ عن الصّورة المثلى الّتي ينبغي أن تكون عليها علاقة العشيرة بأبنائها.

ويسلك قُرَيط بن أُنيف السّبيل ذاته في إثارة حفيظة عشيرته الّتي خذلته في ردّ ما سلبته بنو شيبان من أباعره، ووجَدَ ضالته في بني مازن الّتي خرجت معه إلى أن أدرك سؤله، يقول[2]:[البسيط]

لَو كنت من مَازِنٍ لم تستبح إبلي بَنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

إذاً لقام بنصري معشرٌ خشن عِنْد الحفيظة إنْ ذُو لوثة لانا

يقرّع الشّاعر الواجدُ عشيرتَه ويثيرُ حفيظتها مُعلياً من شأن مَن سواها (بني مازن)، فيبرز مناقبهم ويمجّد صنائعهم (إغاثة الملهوف ونصرته: قام بنصري معشر خشن). ويظهر أنّ إثارة حفيظة العشيرة من خلال مقارنة صنيعها بصنيع مَنْ لم يكن منهم ذو مسعى إصلاحيّ ينبّه فيه العاتب على مواطنِ الضّعف الّتي تهدد كيان عشيرته الوجوديّ بأسلوبٍ غير مباشر فيضرب المثل بعصبة مازن وما أُثر عنهم من عصبيّة شديدة عُرفوا بها وحُمدوا من أجلها. ولا يخفى أنّ التّصدّع الدّاخلي في علاقة العشيرة بأبنائها يهدّد الآصرة القبليّة ويفقدها عناصر وجودها. وما ضعف الآصرة القبليّة وتداعيها إلّا خطرٌ يهدّد وجوده الإنسانيّ.

ويثير مُحْرِز بن المُكَعْبِر الضّبيّ حفيظة عشيرته (بني عديّ) الّتي تكاسلت عن درء المغار عليه ومساندته في إدراك الثّأر، ومَنّتْهُ بالأقوال المزخرفة والمواعيد الخالية من الأفعال، يقول[3]:[الطّويل]

فَهلّا سَـعَيتُم سَـعيَ عُصـبـةِ مـازنٍ وَهـل كُـفَـلائـي فـي الـوَفـاءِ سـواءُ؟

لَـهُـم أذرُعٌ بـادٍ نـواشِـرُ لَـحـمِـهـا وبـعـضُ الـرِّجَـالِ فـي الـحـرُوبِ غُـثَـاءُ

كـأنَّ دَنـانِـيـراً عـلَـى قَسـمـاتِـهـم وَإن كـانَ قَـد شَـفَّ الـوُجُـوهَ لِـقـاءُ

تمحورت الأبيات حول محورين رئيسين: أمّا المحور الأوّل فهو تقريع الشّاعر عشيرته (بني عديّ) الّتي أخلّت برباط العصبيّة القبليّة، وتقاعست عن نجدته في إدراك الثّأر، فأبدلت الخفارة بالإخفار، وضيّعت حقّه بالتقصير والإقصار. والمعلوم أنّ إدراك الثّأر في عرف الجاهليّين شريعةٌ مقدّسةٌ يحفظ للعشيرة شرفها، فلا ينأون عنه، وإن حَصَدَ أرواح الكثير من أبنائها. وأمّا المحور الثّاني فتَبيان مواطن الضّعف في عشيرته، ولا سيّما في الحروب والمعارك (بعض الرّجال في الحروب غُثاء). ويظهر أن كلّاً من الأمرين استدعى ذكر الآخر، فلا بدّ في موقف التّقريع واللّوم من ذكر الحجّة والبرهان عليها، فضلاً عن أنّه لا

---

[1] المفضّليات، ص 262. أخو السّكون: رجل كان أسيراً عند قوم أفنون

[2] شرح ديوان الحماسة، ص15 وما بعدها.

[3] نفسه، ص 1018.

غاية تُنشد ولا فائدة تُرتجى من تَبيان مواضع الخلل ما لم تقترن بالتماس طرائق الإصلاح وسبل النّجاة، ممّا سوّغ للشاعر إبرازَ مناقب بني مازن (لهم أذرع بادٍ نواشر لحمها، كأن دنانيراً على قسماتهم) لتنبيه عشيرته على ما فرّطت فيه في جنب أبنائها وحضّها على الحفاظ على ما يوثّق رباط عصبيتها القبليّة وبعثها على رأب صدع علاقتها مع أبنائها ولمّ شعثها.

ولا يخفى أنّ أشدّ ما يثير حفيظة العشيرة مقارنةُ صنيعها بصنيع غيرها، بل تفضيل صنيعهم عليها وخاصّة مع أبنائها الّذين يَقْضي قانون العصبيّة القبليّة حمايتَهم، ولا يغيب ما في ذلك من انتقاصِ قدر العشيرة في المجتمع القبليّ.

ويبدو من القول الآنف الذّكر أنّ الشّاعر الجاهلي المعاتِب لعشيرته لم يكتفِ بالإخبار عن موجدته، ولم يأنف من توبيخ العشيرة الّتي فرّطت في جنب أبنائها من دون أن يخلّ برباط العصبيّة في أثناء تقريعه؛ إذ إنّه لم يَصْرِم عشيرته أو يهجوها، بل إنّه رَغِبَ في صون ودّها واستبقاء مودّتها وإحكام عُرى ما يربطه بها؛ فرَاحَ يحضّها على التّقيد بما أوجبه رباط العصبيّة القبليّة، وأبرزَ الصّورةَ المثلى لعلاقة العشيرة بأفرادها من خلال المقارنةِ وضرب المثل بعصبة مازن على وجه التّحديد. ولعلّ الشّاعر بذلك يحافظ على وجوده وكيانه المقترن بوجود العشيرة الّتي غدت قطب الرّحى في هذه الحياة الجاهليّة المحفوفة بالمخاطر والأهوال.

وغدا **أسلوبُ الشّرط غير الجازم بـ (لو)** في هذا المَعلم من أبرز الأساليب الشّعريّة، وقد خرج عن معناه الأصليّ (التّمني غير المحقَّق) إلى معنىً مستفادٍ من السّياق **(الحضّ)**، فأظهر عناية الشّاعر بالجانب الإصلاحيّ لحال العشيرة من خلال ضرب المثل بعصبة مازن على سبيل الحضّ لا الذّم، فاستدعاء المثل كانَ من باب تمثّل عشيرته حالَ بني مازن واشتباه حالها بحالهم، فضلاً عن أنّ أسلوب الشّرط الّذي جاء بقصد التّمني أنبأ عن تعذّر حصول المتمنّى (الانتماء إلى عصبة مازن) وأظهره في صورة الممنوع، وإنْ فرّطت العشيرة في جنب أبنائها. ويُثْبِتُ **أسلوب التّحضيض وأداته (هلّا)** في معتبة مُحْرِز بن المُكَعْبِر الغايةَ عينها (تقريع العشيرة وتوبيخها وحضّها على تمثّل صنيع عصبة مازن) الّتي أبلغها أسلوب الشّرط غير الجازم بوساطة حرف التّمني (لو).

4- **استبقاء ودّ العشيرة:**

وهو مظهرٌ من مظاهر وفاء العربيّ الجاهليّ لعصبيّته القبليّة، ويتّضح في هذا المَعلم دافعًا الوفاء للعشيرة: الدّافع الوجوديّ والدّافع الأخلاقيّ، ويلتمس فيه القارئ صدى وصايا الجاهليّين وحِكمهم ودعواتهم إلى الوفاء للعشيرة وعدم الخروج عليها والتّشبث بالآصرة القبليّة والتّمسك بالنّسب إليها مهما تباينتِ الآراء واختلفتِ الأهواء. ويبدو أنّ هذا المَعلم لا يتناقض مع ما اشتملت عليه قصيدة العتاب الجاهليّة من خطاب الإدلال ومذاكرة الوجد وتقريع العشيرة؛ فالعاتب وإنْ كان حريصاً على ذكر مسوءة العشيرة إلّا أنّه لا يجازيها الإساءة بالسّوءى، ويتجنّب عِداءها على الرّغم ممّا بادرته به من سفاهة الرّأي (أفنون التّغلبيّ: فالوا عليّ ولم أملك فيالتهم) والتّقاعس عن الأخذ بالثّأر ودرء المغار (مُحْرِز بن المُكَعْبِر: كسالى إذا لاقيتهم). وهذا من قَبيل حفظ الودّ واستبقاء المودّة، ويتّضح ذلك في موجدة عمرو بن قَميئة الّذي أشقذه قومه وأكنّوا له الخطوب وأضمروا الأضغان فآثر النّأي على العِداء، يقول[1]:[الطّويل]

فَقُلتُ فِراقُ الدارِ أَجمَلُ بَينَنا ... وَقَد يَنتَئي عَن دارِ سَوءٍ نَزيحُها

عَلى أَنَّني قَد أَدَّعي بِأَبيهِمِ ... إِذا عَمَّتِ الدَعوى وَثابَ صَريحُها

وَأَنّي أَرى دينـي يُوافِقُ دينَهُم ... إِذا نَسَكوا أَفراعُها وَذَبيحُها

[1] ديوان عمرو بن قَميئة، ص 19 وما بعدها. الأفراع: أول نِتاج الإبل والغنم، وكان أهل الجاهليّة يذبحونه لآلهتهم.

ويظهر أنّ الشّاعر على الرّغم ممّا كابده يحرِصُ على استعطاف العشيرة ويستبقي ودّها، فلا يدّعي لنفسه نسباً أشرف من نسب أهل عصبيّته أو حسباً أشرف أرومةً من حَسَبِهم، ولا يرى مصدر عزّه إلا بهم. ويظهر أنّ ذلك الصّنيع وما أسفرَ عنه من نأي جَسديٍّ عن الأهل وبُعْدٍ عن ديار العشيرة لم يُضعف الآصرة القبليّة أو يُلغِ انتماءه الرّوحيّ لعشيرته الّتي يَطيبُ بها أصله ومحتده وتَشْرُفُ أرومته (أدعي بأبيهم)، إذ إنّ أكثرَ ما يشدّ أواصر العصبيّة فخرُ الفرد واعتزازه بعشيرته. ويزخر الشّعر الجاهليّ بالأدلّة الّتي تبرز تمسّك الفرد بانتمائه القبليّ، وقد ظهر هذا التّمسك بأجلى صورةٍ له في قصائد عتاب العشيرة وفي حال وَجْدِ الشّاعر – ابن العشيرة – عليها، لأنّه قد وعى أنّ القبيلةَ قطبُ الرّحى في حياة بدويّة محفوفة بالمخاطر، ونظامٍ اجتماعيّ قَبليّ أيقن فيه أنّ ارتباطه بالعشيرة ارتباطٌ وجوديٌّ يحدّد هويّته، وتتجلّى فيه (الأنا) من خلال الـ(نحن)، وتغدو فيه مهمة شاعر العشيرة العظمى تجسيد القيم التّربويّة في الحفاظ على الآصرة القبليّة، ويتّضح ذلك في معتبة مُحْرِز بن المُكَعْبِر الضّبيّ الّذي تكاسلت عشيرته عن مساندته، ولكنّه ظلّ راجياً ودّها على بطء سعيها وتقاعسها عن نصرته، يقول[1]:[الطّويل]

أبلِغ عَديّاً حيثُ صار بها النوَى ولَيسَ لدهرِ الطالِبينَ فَناءُ
كُسَالى إذا لاقيتهُم غيرَ منطقٍ يُلهَّى به المتبولُ وهو عَناءُ
وإني لراجيكُم علَى بطءِ سَعيِكُم كما في بُطُونِ الحامِلاتِ رَجاءُ

ويغدو الاستمرار في الانتماء إلى العشيرة على ما كان منها (كُسَالى إذا لاقيتهُم، يُلهَّى به المتبولُ وهو عَناءُ) الغايةَ العليا للشّاعر الواجد (إني لراجيكُم علَى بطءِ سَعيِكُم)، لأنّ ذلك الانتماء يمنح الذّات هويتها الفرديّة ووجودها الأخلاقيّ.

ويظهر أنّ الشّاعر _كما جاء في قصائد العتاب_ يجتهد في استبقاء ودّ العشيرة، وقد صرّح عن سعيه بالمعاني المباشرة حيناً (شعر عمرو بن قَميئة وشعر مُحْرِز بن المُكَعْبِر)، وتكفّلت بعض المعاني غير المباشرة بوساطة أسلوب **التّصوير الفنّيّ** بالتّعبير عن سعيه لاستبقاء ودّ العشيرة حيناً آخر، ويتّضح ذلك في معتبة أفنون التّغلبيّ الّذي جابهته عشيرته بالظّلم والإبعاد والتّقليل من شأنه فبادر صنيعها بالتّسليم والغضّ عن الإهانة، والتفت إلى ما هو أولى وكان به الواجد أَغْنَى، فأوضحَ العلاقة الرّوحيّة للفرد بالعشيرة وقرّبها من ذهن المتلقيّ من خلال تمثيلها بعلاقة النّاقة ببوّها؛ وهو تشبيه ينمّ على رغبة العاتب في استبقاء ودّ العشيرة، يقول[2]:[البسيط]

أَنّى جَزَوا عامِراً سُوءى بِفِعلِهِم أَم كَيفَ يَجزونَني السُّوءى مِنَ الحَسَنِ
أَم كَيفَ يَنفَعُ ما تُعطي العَلوقَ[3] بِهِ رِئمانَ أَنفٍ إِذا ما ضُنَّ بِاللَّبَنِ

أسهمت **الصّورة الفنية** في إيضاح ماهية الارتباط العاطفيّ للفرد بالعشيرة من خلال تشبيه ما ينبغي أن تكون عليه علاقتهما وتمثيلها بعلاقة النّاقة العلوق ببوّها، إذ إنّها قد ترأم عليه ولكنّها لن تدرّ اللّبن، وهو في المقابل لن يَنْتَفِعَ برئمانها أو عطفها ما لم يُقرن ذلك كلّه بالتّغذية والأمان. وبدا أنّ حال الفرد في العشيرة شبيهٌ بحال النّاقة العلوق مع بوّها، فابنُ العشيرة لا

[1] شرح ديوان الحماسة، ص 1017 وما بعدها.

[2] المفضّليّات، ص 263.

[3] العلوق: التي ترأم بأنفها وتمنع درّها. والأصل أنّ النّاقة إذا ألقت سقبها فخيف انقطاع لبنها أخذوا جلد حوار فحشوه تبناً، ولطّخوه بشيءٍ من سلاها، ثم حشوا أنفها بخرقة، ثم تسلّ تلك الخرقة من أنفها فتجد روحاً، وترى ذلك البوّ تحتها، وهو جلد الحوار المحشو فترأمه، فإنْ درّت عليه قيل: ناقة درور، وترأمه تشمّه، ويقال في هذا المعنى: ناقة ظؤورٌ، فينتفع بلبنها، ويقال: ناقة رائم ورؤوم إذا كانت ترأم ولدها أو بوّها، فإنْ رئمت ولم تدرّ عليه فتلك العلوق. ينظر: الكامل في اللّغة والأدب، 1/ 91.

تستهويه الأقوال الجميلة الحسنة، ولا ينفعه الانتماء الشّكليّ إليها، إنّه يرتجي الانتماء الكامل إلى العشيرة الّتي ينبغي أنْ تغذّيه وتنشّئه داخلها. ويبدو أنّ أفنوناً قد تفرّد في ضرب المثل لعلاقة الفرد العاطفيّة بالعشيرة وما ينبغي أن تكون عليه.

ويظهر أنّ أسلوب الإقناع هو الأسلوب الأظهر في استبقاء العاتِب ودَّ عشيرته، فالشّاعر يحتجّ على عشيرته ثمّ يتّخذ من الموقف الخاصّ الّذي جرى بينهما مطيّةً لتثبيت رأيه وتدعيم فِكره؛ فتغدو تجربته الذّاتية أمراً عامّاً يؤكّده صنيع الشّاعر وفعله في عشيرته. وتسهم بعض الآليّات الفنّيّة في إيضاح الحجّة والإقناع بها، منها **الصّورة التّمثيليّة** الّتي أخرجتِ الأغمض إلى الأوضح[1]، وأبانَ فيها تشبيه الغائب الخفيّ في معتبة مُحرِز بن المُكَعْبِر (إنّي لراجيكم على بطء سعيكم) بالظّاهر المعتاد (كما في بطون الحاملات رجاء) مرادَ الشّاعر (الرّجاء في استبقاء ودّ العشيرة)، وأسهم في إيضاح المعنى الّذي انتقل فيه عن الصّفة والخبر إلى العِيان ورؤية البصر، ولا يخفى ما في ذلك الانتقال من إيضاحٍ للمعنى وتثبيته في ذهن المتلقيّ وإزالة ما قد يساوره فيه من الشّك والرّيب؛ لأنّ المعنى الحسيّ تأنسه النّفوس لطول إلفتها إيّاه، فضلاً عن الأثر الجماليّ والتّأثير المعنويّ للصّورة التّمثيليّة أو المشابهات المتأوّلة الّتي يكون فيها وجه الشّبه عقليّاً محضاً محصّلاً من التّأول، يقول الجرجاني: "التّمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي في مَعرِضه... كَساها أبهة، وكَسَبها منقبة... وضاعف قواها في تحريك النّفوس لها"[2]. ولا يخفى ما في التّشبيه ببطون الحاملات من إشارةٍ إلى العلاقة العاطفيّة للأمّ بوليدها، وهذا يتعاضد مع صورة أفنون التّغلبيّ (النّاقة وبوّها)، وكأنّ الشّاعرَين يتعمّدان استحضار الصّور الفنّيّة الّتي تُظهر ارتباط الوليد الرّوحيّ بأمّه، وعلاقة الأمّ العاطفيّة بوليدها. ولا يخفى ما في هذه الصّور من ترميزٍ إلى ارتباط الفرد (الوليد) الرّوحيّ بالعشيرة (الأمّ) وما اقتضاه هذا الارتباط الرّوحيّ من عطف العشيرة عليه والعناية بحاله.

❖ **الخاتمة ونتائج البحث:**

1- العتاب موقفٌ وجدانيٌّ متفرّدٌ وغرضٌ شعريٌّ متخصّص بذاته، له مضامينه وظواهره الفنّيّة وإنْ كانت بعض الكتب الأدبيّة القديمة والدّراسات الحديثة قد أدرجت العتاب ضمن غرض الهجاء لما فيه من معانٍ توحي بالهجاء (تمنّي الانتماء إلى عصبة أخرى)، وضمن الشّكوى لِمَا يحمله من معنى الإخبار عن سوء صنيع العشيرة ومذاكرة الوجد.

2- عتاب الفرد للعشيرة في القصيدة الجاهليّة أصدق موقفٍ وجدانيٍّ في العتاب؛ لأنّه عتابٌ مطبوعٌ نابعٌ من شعور الفرد بغياب انتمائه إلى العشيرة، ومن إدراكه خطورة تخلّي العشيرة عنه والتّعسُّف في حقوقه، فضلاً عن أنّ عتاب الفرد للعشيرة أظهرُ أنواع العتاب في الشّعر الجاهليّ تعبيراً عن التّمسك برباط العصبيّة القبليّة، فقد ركّز فيه الشّعراء على معاني العتاب الودّيّة، واحترسوا فيه من معاداة العشيرة، وتجنّبوا المعاني التي تثير الشّنآن والقِلى، فغدا موقف العتاب موقفاً لصالح الشّاعر يُثبت من خلاله سجاياه الحميدة، ويتتبع آثار فعاله وصنائعه في العشيرة، ويقابلها بسوء صنيعها فيه.

3- أنتج موقف عتاب العشيرة الوجدانيّ معاني خاصّةً وجدها البحث عند أغلب شعراء العتاب في العصر الجاهليّ، منها (خطاب الإدلال_ مذاكرة الوجد_ إثارة حميّة العشيرة_ استبقاء ودّ العشيرة). فضلاً عمّا أنتجه من صور فنّيّة رسم من

---

[1] أطلق المبرّد مصطلح التّشبيه المصيب، وهو التّشبيه الّذي يخرج الأغمض إلى الأوضح، ينظر: الكامل في اللّغة والأدب، محمّد بن يزيد المبرّد (أبو العباس ت 285هـ)، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، ط3، دار الفكر العربيّ، القاهرة، 1417 هـ ،1997م، 2/ 18، 3/ 27 وما بعدها. والإصابة في التّشبيه من الأسس الجماليّة الّتي عرفها النّقد العربيّ القديم، يقول ابن قتيبة: "وليس كلّ الشّعر يُختار ويُحفظ على جودة اللّفظ والمعنى، ولكنّه قد يُختار ويُحفظ على أسباب: منها الإصابةُ في التّشبيه". الشّعر والشّعراء، ص 88.

[2] أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجانيّ، قرأه وعلّق عليه: أبو فهر محمود محمّد شاكر، ط1، دار المدنيّ، القاهرة وجدّة، 1991م، ص125.

خلالها الشّـاعر موقف العشـيرة منه، وتجلّت بوضـوح في الكنايات عن صـفة الظّلم والجَور (أكنّوا خطوباً_ فالوا عليّ_ أضمروا أضغاناً_ طوت كشوحهم...).

4- حَرَصَ الشّــاعر في خطاب الإدلال في قصــيدة العتاب الجاهليّة على المقابلة والموازنة بين المواقف، فقابل الشّــاعر حسـن صـنيعه في العشـيرة بسـوء صـنيعها، وأبرز منّته عليها، فضـلاً عن أنّ المعاني المثبتة تؤكّد رغبة العاتِب في التّعويض النّفسـيّ عن النّقص الّذي ألحقته به العشـيرة، وترّفع في ذلك كلّه عن مداهنة العشـيرة ومحاباتها قدر تجنّبه ما ينحى باللّائمة عليها؛ فتعضّها نواجذ اللّوم وتقرصها ألسنة الملامة.

5- لا يخفى ما في مذاكرة الوجد من إدراك الشّاعر لأهمية الشّعر في إبلاغ خبر الموجدة، وانتشاره بين أبناء العشيرة وبين العشائر الأخرى، فتغدو هذه المذاكرة وثيقةً يسجّلها الشّاعر الواجد على عشيرته. ولم يكن الشّاعر في ذلك يُعرّض بعشيرته أو يُنقِصُ من شأنها بقدر ما بيّنَ مواضعَ الضّعف في الرّابط الّذي يربط الفرد بعشيرته؛ لعلّ العشيرة تؤوبُ إلى رشدها، وتُدرِك تداعيات ضعف رباط العصبيّة الّذي يهدّد كيانها الوجوديّ، فضلاً عن تهديد كيانها الأخلاقيّ بتقريع الهاجين لها وفخرِهم عليها.

6- يبدو أنّ إثارة حميّة العشيرة تؤكّد عدم رغبة الشّاعر في أنْ يصْرِم عشيرته أو يهجوها، بل إنّه رَغِبَ في صون ودّها واستبقاء مودّتها؛ فرَاحَ يحضّها على التّقيد بما أوجبه رباط العصبيّة القبليّة، وأبرزَ الصّورةَ المثلى لعلاقة العشيرة بأفرادها من خلال المقارنةِ وضرب المثل بعصبةٍ عُرفت بشدّة عصبيّتها وحُمدت من أجلها (عصبة مازن).

7- يجتهد الشّاعر في استبقاء ودّ العشيرة، وقد صرّح عن سعيه بالمعاني المباشرة؛ لأنّ ذلك الانتماء يمنح الذّات هويتها الفرديّة ووجودها الأخلاقيّ؛ ولعلّ الشّــاعر بذلك يحافظ على وجوده وكيانه المقترن بوجود العشــيرة الّتي غدت قطب الرّحى في هذه الحياة الجاهليّة المحفوفة بالمخاطر والأهوال.

8- تنوّعت أسـاليب العتاب وطرائقه في معاتبة الفرد عشـيرته؛ منها الاسـتعطاف والاسـتئلاف في اسـتبقاء ودّ العشـيرة، والاحتجاج والانتصـاف في ذكر المعتبة، والمنّ والإجحاف في ذكر دالّة الشّـاعر على العشـيرة. لكنّ المعتبة بمعانيها وأساليب نظمها ظلّت ذات مسعى إصلاحيّ.

9- إنّ أسلوب الإبلاغ الشّعريّ بوساطة صيغ الأمر والأسلوب الخبريّ المتضمّن في صيغ الإنشاء نحا منحىً إصلاحيّاً رَكّزَ فيه الشّاعر على معاني العتاب الودّيّة الّتي تشي بأهمِيَّة توطيد الآصرة القبليّة مستبعِداً المعاني الّتي تثير الشَّنآن والقِلى، فضلاً عن المعاني الّتي تحذّر من مغبّة سوء طَويّة أبناء العشيرة، وترفّع فيه عن التّزلف والاستعطاف، وتجنّب التّعالي والاستكبار مؤكّداً التزامه بقوانين النّظام القبليّ.

10- انسـجم الأسـلوب الإخباريّ في مذاكرة الوجد مع البلاغ الشّـعريّ، وتوافق مع طبيعة الحدث الّذي يُخبر عنه الشّـاعر (مذاكرة الوجد) وما يقتضيه من أسلوبٍ خبريّ يقرّ فيه العاتب بتحقّق الموجدة. وعاضدت دلالة الأفعال الماضية دلالة الأسلوب الخبريّ من الإقرار بتحقق الموجدة ووقوعها الّذي لا يتردّد في قبوله متلقٍّ، ولا ينكره عليه منكرٌ.

11- أظهر أسلوبُ الشّرط غير الجازم بـــــــ (لو) رغبة الشّاعر في إثارة حميّة العشيرة وتقريعها، وأثبت عنايته بالجانب الإصلاحيّ لحال العشيرة من خلال ضرب المثل بعصبة مازن مثلاً على سبيل الحضّ لا الذّم، فضلاً عن أنّ أسلوب الشّرط الّذي جاء بقصد التّمنّي أنبأ عن تعذّر حصول المتمنّى (الانتماء إلى عصبة مازن) وأظهره في صورة الممنوع وإنْ فرّطت العشيرة في جنب أبنائها.

12- تكفّلت الصّورة الفنّيّة في استبقاء الشّاعر الواجد ودّ عشيرته، فأوضحَتْ العلاقة الرّوحيّة بين الفرد والعشيرة، وقرّبَتْها من ذهن المتلقيّ من خلال تمثيلها بعلاقة الأمّ بولدها الّذي ينفصل عنها جسديّاً، إلّا أنّ ارتباطه بها يبقى ارتباطاً روحيّاً.

❖ **ثبت المصادر والمراجع**

1. أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجانيّ، قرأه وعلّق عليه: أبو فهر محمود محمّد شاكر، ط1، دار المدنيّ، القاهرة وجدّة، 1412هـ، 1991م.
2. الأصمعيّات، أبو سعيد عبد الملك بن قُريب (122–216)، تح: أحمد محمّد شاكر وعبد السّلام هارون، ط3، دار المعارف بمصر، 1383هـ، 1963م.
3. الأغاني، أبو الفرج الأصفهانيّ، تح: أحمد زكي صفوت، دار الكتب المصريّة، القاهرة، نُشرت أجزاؤه (1938– 1958م).
4. الألفاظ الكتابيّة في علم العربيّة، عبد الرّحمن بن عيسى بن حمّاد الهمذانيّ (تـــ 320هـــ)، تح: موفّق صالح الشّيخ، ط1، مركز الرّسالة للدّراسات وتحقيق التّراث، 1432هـ، 2011م.
5. الأمالي، أبو عليّ القاليّ إسماعيل بن القاسم (تـ 356هـ)، عُني بوضعها وترتيبها: محمّد عبد الجواد الأصمعيّ، ط 2، دار الكتب المصريّة، 1344 هـ، 1926م.
6. تاريخ ابن خلدون = كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصـرهم من ذوي الشـأن الأكبر، عبد الرّحمن بن محمّد بن محمّد، ابن خلدون (تـ 808 هـ)، تح: خليل شحادة، ط2، دار الفكر، بيروت، 1408 هـ، 1988م.
7. التيجَان في مُلوك حِمْيَرْ، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميريّ المعافري (تـ213هـ)، ط1، تح: مركز الدّراسات والأبحاث اليمنيّة، مركز الدّراسات والأبحاث اليمنية، صنعاء، 1347 هـ.
8. جمهرة الأمثال، العسكريّ أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (تـ 395هـ)، دار الفكر، بيروت، د. ت.
9. جوهر الكنز تلخيص كنز البراعة في أدوات ذوي اليراعة، نجم الدّين أحمد بن إسماعيل بن الأثير الحلبيّ (تـ 737 هـ)، تح: محمّد زغلول سلام، منشأة معارف الإسكندريّة، د. ت.
10. حِليَّة المحاضرة في صناعة الشّعر، أبو عليّ محمّد بن الحسن بن المظفر الحاتميّ (تـــ 388هـ)، تح: جعفر الكتاني، دار الرّشيد للنّشر، العراق، 1979م.
11. ديوان أوس بن حجر، تح: محمّد يوسف نجم، ط3، دار صادر، بيروت، 1399 هـ، 1979م.
12. ديوان حاتم الطّائي، شـــرح أبي صـــالح يحيى بن مدرك الطّائي، قدّم له: حنّا نصـــر الحتيّ، ط1، دار الكتاب العربيّ، 1415هـ، 1994م.
13. ديوان عمرو بن قَميئة، تح: حسن كامل الصّيرفي، معهد المخطوطات العربيّة، 1385 هـ، 1965م.
14. ديوان كعب بن زهير، صـنعة الإمام أبي سـعيد الحسـن بن الحسـين السّكري، قدّم له: حنّا نصـر الحتيّ، ط2، دار الكتاب العربيّ، 1996م.
15. الرّسائل السّياسيّة، الجاحظ عمرو بن بحر (تـ 255 هـ)، دار الهلال، د. ت.
16. الرّسائل الشّعريّة في العصر الجاهليّ "قراءة في بدايات النّوع الأدبيّ"، مهى عبد القادر مبيضين وجمال محمّد مقابلة، مجلة العلوم الإنسانية، ع 26، 2015م.
17. شرح ديوان الحماسة، الخطيب التّبريزيّ (تـ 502 هـ)، كتب حواشيه: غريد الشّيخ، وضع فهارسه: أحمد شمس الدّين، ط1، منشورات محمّد علي بيضون، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، 1421هـ، 2000م.
18. الشعر والشّعراء، أبو محمّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدّينوريّ (تـ 276هـ)، تح: أحمد محمّد شاكر، دار الحديث، القاهرة، 1423 هـ.
19. الشّكوى في الشّعر الجاهليّ، لارا عدنان ستيتي، إشراف: د. عبد الكريم يعقوب، رسالة ماجستير، جامعة تشرين، 2012م.
20. طبقات فحول الشّعراء، محمد بن سلّام الجمحيّ (تـ 232هـ)، تح: محمود محمّد شاكر، دار المدنيّ، جدّة، د. ت.

21. العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسيّ (شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه تـــ 328 هـــ)، ط1، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1404 هـ.
22. العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده، أبو عليّ الحسن بن رشيق القيروانيّ (390– 456هـ)، تح: محمّد محيي الدّين عبد الحميد، ط5، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1401هـ، 19981م.
23. عيون الأخبار، أبو محمّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوريّ (تـ 276 ه)، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1418 هـ.
24. الفروق في اللّغة، أبو هلال العسكريّ، تح: لجنة إحياء التّراث العربيّ، ط4، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1980م.
25. الكامل في اللّغة والأدب، محمّد بن يزيد المبرّد أبو العباس (تـــ 285هـــ)، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، ط3، دار الفكر العربيّ، القاهرة، 1417هـ، 1997م.
26. كتاب العين، أبو عبد الرّحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيديّ البصريّ (تـــ 170هـــ)، تح: مهدي المخزوميّ وإبراهيم السامرائيّ، مكتبة الهلال، د. ت.
27. لسان العرب، ابن منظور أبو الفضل جمال الدّين بن مكرم (تـ 711هـ)، ط2، دار صادر، بيروت، لبنان، 1300هـ.
28. مباحث في علم المعاني، محمّد طاهر الحمصيّ، ط2، مديريّة الكتب والمطبوعات الجامعيّة، جامعة البعث، 1996م.
29. مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنّى التّيمى البصريّ (تـــ 209هـــ)، تح: محمّد فواد سزگين، مكتبة الخانجيّ، القاهرة، 1381هـ.
30. مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمّد بن إبراهيم (تـــــ 518هـــ)، تح: محمّد محيي الدّين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د. ت.
31. مصادر الشّعر الجاهليّ، ناصر الدّين الأسد، ط 7، دار المعارف، مصر، 1988م.
32. المعمَّرون والوصايا، أبو حاتم السّجستانيّ (تـــ 864هـــ)، تح: عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربيّة، مصطفى البابي الحلبيّ، 1961م.
33. المفضّليات، المفضّل الضّبيّ، تح: أحمد محمّد شاكر وعبد السّلام هارون، ط6، دار المعارف، د. ت.
34. منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجنّي (تـ 684هـ)، تح: محمّد الحبيب خوجة، دار الكتب الشّرقية، د.ت.